إبراهيم بن العباس الصولي

حياته الخاصة والعامة:

في بغداد وفي عهد الرشيد السعيد، ولد إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول، في بيت عُرف بالأدب والسياسة، وكان جده من رجال الدولة العباسية ودعاتها؛ وصُول جد أبيه يدين بالمجوسية، أسلم في جُرجان على يد يزيد بن المهلب، فأصبح له مولًى، وأصل صول تركي الجنس، أقام في فارس، فنشأ أبناؤه على التشبه بأهلها.

وتخرّج إبراهيم في مدينة المنصور بأخيه عبد الله بن العباس، وكان من وجوه الكُتّاب، وهو أسنُّ من أخيه بنحو عشرين سنة؛ وجاء إبراهيم آدب من عبد الله، وأحسن شعرًا، وأحذق كتابة، وأعرق في البلاغة، وكان المطبوع فيه أكثر من المكسوب، علَّمه الدهر ما لم تعلمه الكتب، وأوحى إليه الزمن المؤدب ما لم يُوحه لرجل عاش في بيئة ضيقة، وعيش ضنك، وبيت خامل.

كان الصولي مجموعة ثقافات وعناصر؛ فيه الدم التركي والدم العربي، جاءه الدم العربي من أمه، وكان خاله العباس بن الأحنف من أشعر الشعراء في عصره، وربما كان إبراهيم يعرف التركية لغة آبائه، والفارسية لغتهم الثانية، بعد جلائهم إلى خراسان، أما ثقافته العربية، فأوسع ثقافة في لغة العلم والدين ولغة دولته العظيمة.

كان محيط الصولي متسع الرحاب وحياته كلها كذلك، دخل في خدمة الدولة كآبائه، يتولى بعض أعمال الإدارة، ويتعرف إلى رجالها ويختلط بهم، واطلع على عورات الناس ومحامدهم، وكشف سر مجتمعه وعلانيته، قلّب الأخلاق والأعراق

كل مقلّب، وثافن العظماء، وعرف ما يرضيهم وما يغضبهم، وكتب للخلفاء وتأدب بآدابهم، كتب للمعتصم والواثق والمتوكل؛ وقلما ذهب رجل برضا الملوك إلا كانت له مزايا تنفع دولتهم.

وأصاب الصولي ما يصيب قُربان[1] الملوك من السعادة ونقيضها، وعانى من الكبراء ما يعانيه أمثاله ممن تطوحوا في الخدمة، وكان بعض ما نال مما أوقعته فيه المنافسة، وبعضه مما استحق عليه النكبة: جرى في طريقة رجال الدولة المطلقة المستبدة، فمثّل صورة صحيحة من مجتمعه، على ما كان كلامه صورة صادقة من قلبه وفكره، ودخل فيما يدخل فيه نظراؤه من أرباب الولايات، وما خرج على مألوفهم، بل ضَرَب على وترهم، وحطب في حبلهم، تآمر على خصمائه وتآمروا عليه، وضربهم وضربوه، ومدح الناس ومدحوه، وثلبهم وثلبوه، وحسدهم وحسدوه، وكان في كل ما أتى مدفوعًا بنابل[2] من تربية عصره ومصره، تجسدت فيه أخلاق عَصْرِييه، فانعكس كل ما رأى على صحيفة شعره ونثره، فردده وردد عنه حتى عاد بعدُ أمثالًا.

لما عزم المأمون على الفتك بالفضل بن سهل عرف الصولي ذلك من صديق له كان من بعض من وُضعوا له، فما رأى إلا القيام بحسن الصنيعة مع الفضل، وقد عاش هو وأخوه عبد الله في حمايته واصطناعه، ورفع منهما وحَثَا عليهما، فأخبر الفضل بما يُدبر له، وانتهى الخبر إلى المأمون، فعرف أن الصولي قد أبلغ الفضل ما يُراد به، فطلبه فاستتر، ثم عفا عنه بما بلغه عنه من جواب لطيف، دل على بُعد نظر وذكاء.

---

(١) القربان: جليس الملك الخاص.

(٢) النابل: السائق.

بدأت حياة إبراهيم في السياسة ومن المعتصم، وسار سيرة أرباب الإدارة إذ ذاك، يأخذ ويعطي من مال الأمة والدولة، ويُقلد كبار العمال في مظاهرهم، ولا يتعفف عن مال ومتاع؛ كان مظهرًا من مظاهر العاملين في الدولة، يستمتع بخيراتها أنَّى وجدها، ويفوقهم بأنه كان على جانب عظيم من المروءة وسعة الفضل؛ ولا عجب أن سار الصولي هذه السيرة، وقد كان في زمن يكتب فيه مثل أبي العيناء النديم إلى صديق له ولي ولاية: «واعلم أن الخيانة فطنة، والأمانة حرفة، والجمع كيس، والمنع صرامة، وليس كل يوم ولاية، فاذكر أيام العطلة، ولا تحقِرن صغيرًا، فإن من الدور إلى الدور، وإيلاء الولاية رِقدة، فتنبه قبل أن تنبه، وأخو السلطان أعمى، عن قليل سوف يبصر، وما هذه الوصية التي أوصى بها يعقوب بنيه، ولكن رأيت الحزم في أخذ العاجل، وترك الآجل».

وموطن الضعف من أخلاق الصولي أنه كان كما أراد أبو العيناء يأخذ العاجل ولا يبالي، ويدب إليه دبيب الوشاة، فينجو مرات، ويَعْطَب مرات. روى الجهشياري أنه لم يكن للصولي تقدم في الخراج على بلاغة فيه، وكان بينه وبين أحمد بن المدَبِّر تباعد، وكان أحمد مقدمًا في الكتابة، فقال أحمد بن المدبر للمتوكل: قلدت إبراهيم بن العباس ديوان الضياع، وهو متخلف في هذا الشأن، لا يحسن منه قليلًا ولا كثيرًا، وطعن عليه طعنًا قبيحًا، فقال المتوكل: في غدٍ أجمع بينكما. واتصل الخبر بإبراهيم فأيقن بحلول المكروه، وعلم أنه لا يفي بأحمد بن المدبر في صناعته، وغدا إلى دار السلطان آيًا من نفسه ونعمته، وحضر أحمد فقال له المتوكل: قد حضر إبراهيم وحضرتَ ومن أجلكما قعدت، هات، اذكر ما كنت فيه أمس، فقال أحمد: أي شيء أذكر عنه فإنه لا يعرف أسماء عماله في النواحي، ولا يعلم ما في دساتيرهم من تقديراتهم وكيولهم، وحمل من حمل منهم ومن لم يحمل، ولا يعرف أسماء النواحي التي تقلدها، وقد اقتطع أصحابه بناحية كذا كذا ألفًا، واختلت ناحية كذا في العمارة، وأطال في ذكر هذه الأمور؛ فالتفت المتوكل إلى إبراهيم

فقال: ما سكوتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين جوابي في بيتي شعر قلتهما، فإن أذن أمير المؤمنين أنشدتهما. فقال: هات. فأنشده:

ردَّ قـــولي وصـــدَّق الأقـــوالا وأطـــاع الوشـــاة والعـــذَّالا
أتـــراه يكـــون شـــهر صـــدود وعـــلى وجهـــه رأيـــت الهـــلالا

وقيل: إن إبراهيم لما سمع كلام ابن المدبر ضاقت عليه الحجة، وخاف أن يحقق قوله إن اعترف، ثم لا يرجع منه إلى شيء فيعود عليه الغرم، فعدل عن الحجة إلى الحيلة فأنشد البيتين.

وفي رواية: أن الخليفة لما سمع ما سمع قال: لا يكون ذلك، والله لا يكون ذلك أبدًا. والتفت إلى الواشي وقال له: كيف تقبل في المال قول صاحبه.

وفي رواية ثانية: أن المتوكل قال لما سمع البيتين: زه زه أحسنت؛ إيتوني بمن يعمل في هذا لحنًا، وهاتوا ما نأكل وجيئوا بالنساء، ودعونا من فضول ابن المدبر، واخعلوا على إبراهيم بن العباس، فخلع عليه وانصرف إلى منزله.

قالوا: ومكث إبراهيم بن العباس يومه مغمومًا، فقيل له: هذا يوم سرور وجذل بما جدد الله لك من الانتصار على خصمك، فقال: الحق أولى بمثلي وأشبه، إني لم أدفع حجة أحمد بحجة، ولا كُذِّب في شيء مما ذكر، ولا أنا ممن يعشره في الخراج، كما أنه لا يُعشرني[1] في البلاغة، وإنما فلجت[2] برطازة[3] ومخرقة، أفلا أبكي فضلًا عن أن أغتم من زمان يدفع هذا كله.

---

(١) لا يبلغ معشاره. يقال: فلان لا يعشر فلانًا ظرفًا؛ أي: لا يبلغ معشاره، وعشرت (بتشديد الشين) القوم تعشيرًا إذا كانوا تسعة فجعلتهم عشرة، وعشرتهم (بفتح الشين): إذا أخذت واحدًا فصاروا تسعة.
(٢) الفلج: الظفر، ويَفْلُجُ ويفْلِجُ في الكل.
(٣) والرطازات مخففة: الخرافات.

وبهذه الوقعة تمثل لنا أدب الصولي، وضعفه فيما وسد إليه من عمل اعترف بإهماله في أعماله، حتى ترك المجال لخصمه يسقطه في نظر الخليفة؛ وكأن ابن المدّبر رماه بما رماه وهو موقن بأن هذا الإهمال لا بد أن يكافئه عليه عماله، ويعطوه بعض ما يجنون، فتضيع حقوق الدولة، وتهمل مصالح الرعية.

(ما كل مرة تسلم الجرة) فقد صار الصولي إلى زمن ما استطاع أن يدفع عن نفسه بغير ما ملكت يده. كان في سنة (٢٣٣) على الأهواز، وكان صدقه محمد بن عبد الملك الزيات وزيرًا، فوجه إليه من أقامه للناس، فصالحه عن نفسه بألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وأُحدر الصولي بعد ما قُبض عليه إلى بغداد لأخذ ما له بها، وأخذوا غلامه وكان قهرمانه، في يده أمواله يتجر بها، وأخذوا عدة من أهل بيته، وأخذ معهم حمل بغل من الدنانير، ووجدت له بيوت فيها أنواع التجارة، وكان جميع ما قبض له، مع ما وجد قيمة تسعين ألف دينار، وأمر المتوكل بحبسه، فقال إبراهيم يخاطب الوزير صديقه القديم:

وكنت أخي بأرخى الزما ... ن فلما نبا عُدْتَ حربًا عوانًا
وكنت أذمُّ إليك الزما ... ن فأصبحت فيك أذم الزمانا
وكنت أعدك للنائبا ... ت فها أنا أطلب منك الأمانا

وقال:

أصبحت من رأي أبي جعفر ... في هيئة تنذر بالصيلم[1]
من غير ما ذنب ولكنها ... عداوة الزنديق للمسلم

وذكر من ترجموا للصولي أن الذي تولى أمر كشفه تحاملًا شديدًا، فكتب إبراهيم إلى الوزير محمد بن عبد الملك:

---

(١) الصيلم: الأمر الشديد والداهية.

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب ... وسُلط أعداء وغاب نصير
تكون عن الأهواز داري بنجوة[1] ... ولكن مقادير جرت وأمور
وإني لأرجو بعد هذا محمدًا ... لأفضل ما يُرجى أخ ووزير

والسبب في العداوة بين محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصولي: أنه لما ولي ابن الزيات وزارة المعتصم نقص إبراهيم عما يستحقه من الدعاء، فلم تحتمل ذلك نفسه ورياسته، وموضعه من الصناعة والدولة، فعاتبه في ذلك فلم يُعْتبه، فألهب له نار هجاءٍ لا يطفئها الدهر، فزعم إبراهيم أن ابن الزيات ما ظن أن الرياسة تنجذب إليه، ولا أن العز يتحصل له، إلا بحط إخوانه عن منزلتهم، ونقصهم عن مرتبتهم، ثم نظم ذلك في شعر فقال:

من رأى في المنام مثل أخ لي ... كان عوني على الزمان وخلي
رفعته حال فحاول حطي ... وأبى أن يُعَزَّ إلا بذلي

وكان هذا الخطاب في أول الأمر، ثم أنحى عليه بالهجاء، وكان محمد بن عبد الملك، على علمه وأدبه، وكونه واحدًا في صناعته، مفردًا في براعته، لا يخلو من لؤم أحيانًا.

ولما وقف الخليفة على تحامل ابن الزيات رفع يده عن إبراهيم، وأمره أن يقبل منه ما رفعه، ويرده إلى الحضرة مصونًا، ثم ولاه ديوان زمام النفقات، وتولى أيضًا الضياع، فبسط إبراهيم لسانه في ابن الزيات، وهجاه هجاءً كثيرًا منه:

قدرت فلم تَضْرُر عدوًّا بقدرة ... وسمتَ بها إخوانك الذل والرغما
وكنت مليًّا بالتي قد يعافها ... من الناس من يأبى الدنية والذَّما

وقال فيه أيضًا:

---

(١) النجوة: ما ارتفع من الأرض.

أبا جعفر خفْ خفضة بعد رفعة[1] وقصر قليلًا عن مدى غلوائكا
فإن كنت قد أُوتيت عزًّا ورفعة[2] فإن رجائي في غدٍ كرجائكا

وقال فيه أيضًا:

دعوتك في بلوى ألَمَّت صروفها فأوقدت من ضغن عليَّ سعيرها
وإني إذا أدعوك عند ملمة كداعية بين القبور نصيرها

ومما قال فيه:

أخ كنت آوي منه عند ادِّكاره إلى ظل آباء من العز باذخ
سعت نوب الأيام بيني وبينه فأقلعن منا عن ظلوم وصارخ
وإني وإعدادي لدهري محمدًا كملتمس إطفاء نار بنافخ

وقال فيه:

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عُسر
فقد كشف الإثراءُ منك خلائقًا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وتَغيّر الزمان، ورأى ابن الزيات تغيرًا من الواثق فخافه، وفرق مالًا عظيمًا، وجوهرًا نفيسًا، في ثقاته ومعامليه من التجار، والصولي (يعاديه ويرصد له بالمكاره لإساءته إليه)، فنظم أبياتًا وأشاعها حتى بلغت الواثق يُغريه به؛ وفي السنة التي قبض فيها ابن الزيات على الصولي، هلك ابن الزيات في حبس المتوكل.

ولما أمر المتوكل إبراهيم بن العباس الصولي أن يكتب فيما كان أمر به من تأخير الخراج حتى يقع في خمس من حزيران ويقع استفتاح الخراج به، كتب في ذلك كتابه

(١) في رواية: (أبا جعفر خف نبوة بعد دولة).

(٢) في الأغاني بدل هذه الشطرة: (لئن كان هذا اليومْ يومًا حويته)؛ وفي رواية: (فإن يك هذا اليوم يومًا حويته).

المعروف، وأحسن فيه غاية الإحسان، فدخل عبيد الله بن يحيى على المتوكل فعرفه حضور إبراهيم بن العباس وإحضاره الكتاب معه، فأمر بالإذن له فدخل وأمره بقراءة الكتاب فقرأه، واستحسنه عبيد الله بن يحيى وكل من حضر؛ قال البلاذري: فدخلني حسد له، فقلت: فيه خطأ، قال فقال المتوكل: في هذا الكتاب الذي قرأه عليَّ إبراهيم خطأ؟ قال: قلت: نعم. قال: يا عبيد الله وقفت على ذلك؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما وقفت فيه على خطأ. قال: فأقبل إبراهيم بن العباس على الكتاب يتدبره، فلم ير فيه شيئًا، فقال: يا أمير المؤمنين الخطأ لا يعرى منه الناس، وتدبرت الكتاب خوفًا من أن أكون قد أغفلت شيئًا وقف عليه أحمد بن يحيى فلم أرَ ما أنكره، فليعرفنا موضع الخطأ. قال: فقال المتوكل: قل لنا: ما هو هذا الخطأ الذي وقفت عليه في هذا الكتاب؟ قال: فقلت: هو شيء لا يعرفه إلا علي بن يحيى المنجم ومحمد بن موسى، وذلك أنه أرَّخ الشهر الرومي بالليالي، وأيام الروم قبل لياليها، فهي لا تؤرخ بالليالي، وإنما يؤرخ بالليالي العرب؛ لأن لياليها قبل أيامها بسبب الأهلّة. فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين هذا ما لا علم لي به ولا أدعي فيه ما يدعي. قال: فغيّر تاريخه.

وقد عُرف من سيرة الصولي أنه كان يستمتع بمباهج الحياة ومناعمها، ويتبسط في مجالسه مع عشرائه، ويصرف جانبًا من وقته في اللهو، ومداعبة الغواني والقيان. هوى جارية لبعض المغنين بسر من رأى يقال لها: شاهر شُهر بها، وكان منزله لا يخلو منها، وله معها وقائع وتجنيات، وقال فيها أشعارًا كثيرة وكانت هي شاعرة، وكانت تهواه أيضًا، فعاتبها وعاتبته، وغازلها وغازلته، وما زالا كذلك حتى فرَّق الموت بينهما.

وكأن الصولي كان يرى من حقه أن يحب، ومن حقه أن يطرب ويمجن، وأن يسمع الغناء والموسيقى، ويخلع أثواب الوقار في بعض ساعات يومه، وما كان يرى في ذلك بأسًا، بل يعتقد أن هذه الملاهي مما يخفف من تعبه، ويزيد في الإمتاع بأدبه. ولقد قال له بعضهم ذات يوم: قد أخملت نفسك ورضيت أن تكون تابعًا أبدًا، لاقتصارك على القصف واللعب، فأنشأ يقول:

إنـــــما المـــــرء صـــــورة حيـــــث حَلَّـــــت تناهـــــت
أنـــــا مـــــذ كنـــــت في التـــــصرف[1] لي حـــــال ســـــاعتي

وهذا سرُّ تخلفه في عمله الإداري، يُلقي الحبل على الغارب، ويلتفت لإرضاء نفسه بما تصبو إليه من راحة ونعيم. وربما كان ذلك من دواعي معاداته بعض رجال الدولة، ومنهم من كان يريد أن يستوفي مال السلطان منه، فيما يُولاه من الأعمال الجليلة، ومنهم من يحاول أن يشاطره مغانمه، ويريده أن ينزل على إرادته، أو يصادره ويسعى به إلى السلطان.

استلزمت حياة الصولي الخاصة تعرّف طرق الأخذ من المال، وإنفاقه فيمن كان يحيط به من الناس، وهو في كرمه على أخلاق عالية، ولعله كان من المتعذر في ذاك العصر أن يعتصم العامل بعصمته من كل وجه، ويعف عن كل منكر؛ ولو فعل ذلك لقضت الحال أن ينعزل في رأس جبل أو يأوي إلى بعض الرباطات يجاهد في سبيل الله قانعًا مخبتًا. والمجتمع لا يعيش بهذا المقتر، ولا بذاك المسرف.

(١) التصرف: الاستخدام.

أدبه وكتابته:

كأن ملكة النثر والنظم كانت كالشيء الواحد في نظر الصولي، إن شاء نثر، وإن شاء شَعر، والإجادة مكتوبة له في كلتا الوجهتين، وما كان شعره لولا أوزانه وقوافيه إلا نثرًا، وبعمل قليل يُحال نثره شعرًا وشعره نثرًا. كان إبراهيم بن العباس إن قال الشعر كأنه يخطب أو يكتب، وإذا كتب الكتاب وخطب الخطاب كان كأنه يشعر، فأكذب من قالوا: إنه لا إجادة لشاعر في الكتابة، ولا لكاتب في الشعر، فهو إمام في الصناعتين، فرد في الكتابة، وبحق دُعي كاتب العراق، وعدّ في زمرة أعاظم الشعراء؛ وهذا من أندر ما وقع لمن عانوا صناعة القلم منذ القديم وإلى اليوم.

يقول المسعودي: إنه لا يُعلم فيمن تقدم وتأخر من الكُتَّاب أشعر منه، وكان دِعْبِل يقول: لو تكسب إبراهيم بالشعر لتَرَكَنا في غير شيء، وتعجب من قوله:

إن امـــرأ ضـــنَّ بمعروفـــه ... عنـــي لمبـــذول لـــه عـــذري
مـــا أنـــا بالراغـــب في خـــيره ... إن كـــان لا يرغـــب في شـــكري

قال ابن رشيق: والكتَّاب أرق الناس في الشعر طبعًا، وأملحهم تصنيعًا، وأحلاهم ألفاظًا، وألطفهم معاني، وأقدرهم على تصرف، وأبعدهم من تكلف؛ وقد قيل: الكُتَّاب دهاقين الكلام، وما نزيدك على قول إبراهيم بن العباس الصولي بين يدي المتوكل حين أحضر لمناظرته أحمد بن المدبر، فقال ارتجالًا:

صـــدّ عنـــي وصـــدّق الأقـــوالا ... وأطـــاع الوشـــاة والعـــذالا
أتـــراه يكـــون شـــهر صـــدود ... وعـــلى وجهـــه رأيـــت الهـــلالا

وكان أحمد بن يحيى ثعلب يقول: إبراهيم بن العباس أشعر المحدثين، وما روي شعر كاتب غيره، وكان يستجيد قوله:

لنـا إبـل كـوم[1] يـضيق بهـا الفـضا ويغـبرّ منهـا أرضـها وسـماؤها
فمـن دونهـا أن تـستباح دماؤنـا ومـن دوننـا أن تـستباح دماؤهـا
حمًـى وقِـرًى فـالموت دون مرامهـا وأيـسر خطـب يـوم حـق فناؤهـا

ويقول: والله لو أن هذا لبعض الأوائل لاستجيد له.

وسُمع إبراهيم بن العباس يقول لأبي تمام الطائي، وقد أنشده شعرًا له في المعتصم: يا أبا تمام أُمراء الكلام رعية لإحسانك، فقال أبو تمام: لأني استضيء بك وأَرِدُ شرعتك.

ولما قرأ إبراهيم على المتوكل رسالته إلى أهل حمص: أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين يرى من حمد الله عليه بما قَوَّم به من أَوَد، وعدّل به من زَيْغ، ولمَّ به من منتشر، استعمال ثلاث، يقدم بعضهن أمام بعض، أُولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف، ثم التي لا يقع بحسم الداءِ غيرها.

أنـاة فـإن لم تغـنِ عقّـب بعـدها وعيـدًا فـإن لم تغـن أغنـت عزائمـه

عجب المتوكل من حسن ذلك، وأومأ إلى عبيد الله، أما تسمع؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلة خبأها الله لك، واحتبسها على أيامك؛ وهذا أول شعر نفذ في كتاب عن خلفاء بني العباس.

وكتب عن أمير المؤمنين إلى بعض البغاة الخارجين يتهددهم ويتوعدهم، وما زاد أن وضع خمس كلمات في أول البيت السابق، فأصبح كتابًا منثورًا قال: «أما بعد؛ فإن لأمير المؤمنين أناة، فإن لم تغن عقب بعدها وعيدًا، فإن لم تُغن أغنت عزائمه، والسلام».

---

(١) الكوم بضم الكاف: قطعة من الإبل.

واشتهر إبراهيم بإيجازه في رسائله؛ ومن ذلك رسالة له أنشأها في بعض العصاة الذين نصبت جثثهم لاعتبار: «قسم الله عدوه أقسامًا ثلاثة: روحًا معجلة إلى دار عذاب الله، وجثة منصوبة لأبصار أولياء الله، ورأسًا منقولًا إلى مقر خلافة الله».

حدَّث أبو بكر الصولي عن العباس بن محمد قال: أنشدني إبراهيم بن العباس في مجلسه في ديوان الضياع:

ربما تجزع النفوس من الأمر ... له فرجة كحلّ العقال

ونكت بقلمه ثم قال:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذَرعًا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج

قال: فعجبنا من سرعة طبعه، وجودة قريحته؛ وشاعت الأبيات الثلاثة في المتأخرين حتى أصبحت مما لا يكاد يغفل عن التمثل بها أحد، وكذلك كثير من أبياته، وقلَّ في الناس من يعرف ناظمها.

ومما ذكروا من بدائع بدائهه: أنه خرج ودعبل الخزاعي وأخوه رزين في نظراء من أهل الأدب رجالةً إلى بعض البساتين في خلافة المأمون، وذلك في زمن حمول إبراهيم، فلقوا جماعة من أهل السواد من حُمّال الشوك، فأعطوهم شيئًا وركبوهم حميرهم، فأنشأ إبراهيم يقول:

أُعيضت عن حمول الشو ... ك أحمالًا من الحَرْف
نشاوى لا من الصهبا ... ء بل من شدة الضعف

فقال رزين:

فلو كنتم على ذاك ... تملينون إلى قصف

تـــسارت حـــالكم فيـــه ولم تبقـــوا عـــلى خـــسف

فقال دعبل:

وإذ فـــات الـــذي فـــات فكونـــوا مـــن أولي الظـــرف
ومـــرّوا نقـــصف اليـــوم فـــإني بـــائع خفـــي

ثم باع خفه وأنفق ثمنه عليهم.

ومما أنشد الصولي ثعلبًا لنفسه:

كم قد تجرعت من حزن ومن غُصص إذا تجـدد حـزن هـوّن الماضي
وكـم غـضبت فـما بـالَيْتُمُ غـضبي حتـى رجعـت بقلـب سـاخط راضي

قال أبو بكر الصولي كأنه أخذه عندي من قول خاله العباس بن الأحنف:

تعلمت ألوان الرضا خوف عتبها وعَلمهـا حبـي لهـا كيـف تغـضب
ولي غـير وجـه قـد عرفـت مكانـه ولكـن بـلا قلـب إلى أيـن أذهـب

ومما يتمثل به من شعره قوله:

ورب أخ ناديتـــه لملمـــة فألفيتـــه منهـــا أجـــلّ وأعظـــما

ومما أثر له:

لا تمـدحن ابـن سـهل إن وجـدت لـه فعـلًا جمـيلًا ولا تعـذل إذا أزِمـا[1]
فلـيس يمنـع إبقـاءً عـلى نَـشَب ولـيس يعطـي الـذي يعطيـه معتزمـا
لكنهـا خطـرات مـن وساوسـه يعطـي ويمنـع لا بخـلًا ولا كرمًـا

(١) أزم العام: اشتد قحطه.

ربما كان لإبراهيم دوران أخصب فيهما شعره ونثره، دور افتتانه بتلك القينة الشاعرة في سامرّا، ودور اضطهاد محمد بن عبد الملك الزيات له، وهياج النفس بالحب، وهياج النفس بالشدة، مدعاة إلى تفتح القريحة عند بعض الناس؛ فمن كتبه يستعطف ابن الزيات: «كتبت إليك وقد بلغت المدية المحزّ، وعَدَتْ الأيام عليَّ، بعد عدوي بك عليها، وكان أسوأ ظني وأكثر خوفي أن تسكن في وقت حركتها، وتكف عند أذاتها، فصرت عليَّ أضَرَّ منها، وكفَّ الصديق عن نُصرتي خوفًا منك، وبادر إليَّ العدو تقربًا إليك» وكتب تحت ذلك:

أخ بيني وبين الدهـ ـر صاحب أيّنا غلبا
صديق ما استقام فإن نَبَا دهر عليَّ نبا
وثبتُ على الزمان به [illegible]
ولو عاد الزمان لنا لعاد به أخًا حَدِبا

وكتب إليه: «أما والله لو أمنت ودك لقلت، ولكني أخاف منك عتبًا لا تنصفني فيه، وأخشى من نفسي لائمة لا تحتملها لي، وما قُدّر فهو كائن، وعن كل حادثة أُحدوثة، وما استبدلت بحالة كنت فيها مغتبطًا، حالة أنا في مكروهها وألمها أشد عليَّ من أنّي فزعت إلى ناصري عند ظلم لحقني، فوجدت من ظلمني أخفّ في ظلمي منه، وأحمد الله كثيرًا».

ولما انحرف الوزير عن الصولي تحاماه الناس أن يلقوه، وكان الحارث المغني صديقًا له مصافيًا، وهجره في من هجره من الإخوان، فكتب إليه:

تغيّر لي فيمن تغير حارث وكم من أخ قد غيرته الحوادث
أحارث إن شوركت فيك فطالما غنينا وما بيني وبينك ثالث

دخل أحمد بن المدبر على إبراهيم بعد خلاصه من النكبة مهنئًا، وكان استعان به في أمر النكبة فقعد عنه، وهو الذي كان جاهره العداوة في حضرة المتوكل، وأغضى الخليفة عما نُسب إلى الصولي، وكان بلغه أن ابن المدبر حرَّض عليه ابن الزيات، فقال الصولي:

وكنت أخي بالدهر حتى إذا نبا ... نبوتَ فلما عاد عدت مع الدهر
فلا يوم إقبالي عددتك طائلًا ... ولا يوم إدباري عددتك من وتر
وما كنت إلا مثل أحلام نائم ... كلا حالتيك من وفاءٍ ومن غدر

وله فيه أيضًا:

لو قيل لي خذ أمانًا ... من أعظم الحدثان
لما أخذت أمانًا ... إلا من الخلان

وقال:

بلوت الزمان وأهل الزمان ... وكل بلوم وذم حقيق
فأوحشني من صديقي الزمان ... وآنسني بالعدو الصديق

وقوله:

يا أخًا لم أر في الدهر خِلًّا ... قبله أسرع هجرًا ووصلا
كنت لي في صدر يومي صديقًا ... فعلى عهدك أمسيتَ أم لا

***

حكى الجهشياري قال: رأيت دفترًا بخط إبراهيم بن العباس الصولي فيه شعر قاله في حبس موسى بن عبد الملك، أخي محمد بن عبد الملك الوزير، يصف غليظ ما هو فيه من الحبس، وثقل الحديد والقيد، ويذكر موسى في شعره، وكان يكنى بأبي الحسن، فكناه بأبي عمران. فقال في قصيدة طويلة:

كم تُرى يبقى على ذا بدني ... قد بَلى من طول همي وفنى
أنا في أسر وأسباب رَدَى ... وحديد فادح يَكْلَمُني
وأبو عمران موسى حنق ... حاقدٌ يطلبني بالإحنِ
ليس يشفيه سوى سفك دمي ... أو يراني مدرجًا في كفن

وقد كتب أحمد بن المدبر بخطه في ظهر هذا الدفتر:

أبا إسحاق إن تكن الليالي ... عطفن عليك بالخطب الجسيم
فلم أر صَرف هذا الدهر يجري ... بمكروه على غير الكريم

وله أبيات في الغزل والنسيب فيها إبداع جميل، ومنها:

وعلمتني كيف الهوى وجهلته ... وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي
وأعلم ما لي عندكم فيردني ... هواي إلى جهلي فأرجع عن علمي

وقال وأورده أبو تمام في الحماسة:

ونُبئت ليلى أرسلت بشفاعة ... إليَّ فهلا نفس ليلى شفيعها
أأكرم من ليلى عليَّ فتبتغي ... به الجاه أم كنت امرًا لا أطيعها

وقال:

تدانت بقوم عن تناءٍ زيارة ... وشطَّ بليلى عن دنو مزارها
وإن مقيات بمنعرج اللِّوى[1] ... لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

وقال:

وليلى كمثل النار ينفع ضوؤها ... بعيدًا نأى عنها ويحرق جارها

ومما قال في حسن الحديث:

---

(١) اللوى كإلى: ما التوى من الرمل.

إن الزمـــان ومـــا تـــرين بمفرقـــي صرَفَ الغوايـــة فانـــصرفت كـــريما
وضـــجرت إلا مـــن لقـــاء محـدِّث حـــسن الحـــديث يزيـــدني تعلـــيما

ومن قوله:

لا تلمنـــي فـــإن همـــك أن تثـــ ـــرى وهمـــي مكـــارم الأخـــلاق
كيـف يـستطيع حفـظ مـا جمعـت كفـ ـــاه مـــن ذاق لـــذة الإنفـــاق

ومن إشاراته:

لا يمنعنـك خفـض العـيش في دعـة نـــزوع نفـــس إلى أهـــل وأوطـــان
تلقـى بكـل بـلاد إن حللـت بهـا أهـــلًا بأهـــل وجيرانًـــا بجـــيران

وقال:

لا نُهنِّيـــــــــك بطـــــــــوس بـــل نهنـــي بـــك طوســـا
أصـــبحت بعـــد طـــلاق بـــك بالفـــضل عروســـا(١)

وقال في أبي الوليد أحمد بن أبي الورد:

عَفَّـت مـساوٍ تبـدت منـك فاضـحةً عـلى محاســن أبقاهــا أبــوك لكــا
لـئن تقـدمتَ أبنـاء الكـرام بهـا لقـــد تقـــدم آبـــاء اللئـــام بكـــا

وقال:

وأنـت هـوى الـنفس مـن بيـنهم وأنـــت الحبيـــب وأنـــت المطـــاع
فـــما بـــك إن بَعـــدوا وحـــدةٌ ولا معهـــم إن بعـــدت اجـــتماع

---

(١) هذه رواية الثعالبي في المنتحل، وروايته في كتابه نثر النظم وحل العقد هكذا:

فلقـــد أصـــبحت اليـــو م بـــك الطـــوس عروســـا

ومما نسب إليه:

كـن كيـف شـئت وقـل مـا تـشا ... ء وأبـرق يمينًـا وأرعـد شـمالا
نجـا بـك لؤمـك منجـى الـذبا ... ب حتـه مقـاذره أن يُنـالا

ومن تغزله:

أراك فـلا أردُّ الطـرف كـيلا ... يكـون حجـابُ رؤيتـك الجنـون
ولـو أني نظـرتُ بكـل عـين ... لمـا استقـصت محاسـنك العيـونُ

ومن شعره وهو مما صار في حُكْم الأمثال شيوعًا، وقيل: هو لأبي تمام الطائي، وهو الأرجح:

أوْلَى البريـة طـرًا أن تؤاسـيه ... عنـد السرور الـذي آساك في الحـزن
إن الكـرام إذا مـا أسـهلوا ذكـروا ... مـن كـان يـألفهم في المـوطن الخـشن

وأنشد الأخفش من شعر الصولي الأبيات الثلاثة التالية، وكان يفضلها ويستجديها:

أميـل مـع الـصديق عـلى ابـن[1] أمـي ... وأقـضي[2] للـصديق عـلى الـشقيق
وإمـا تلقنـي حـرًّا مطاعًـا ... فإنـك واجـدي عبـد الـصديق
أفـرِّق بـين معـروفي ومنـي ... وأجمـع بـين مـالي والحقـوق

قال المسعودي: ومما استحسن من شعره الذي لم يسبقه عند جماعة أهل الأدب أحد من زمانه قوله: «لنا إبل كُوم يضيق بها الفضا» إلخ.

وهي الأبيات الثلاثة التي تقدمت، وكان ثعلب يستحسنها.

---

(١) في رواية: ابن عمي.
(٢) رواية: وآخذ.

ويقول أبو هلال العسكري في ديوان المعاني، ومن المديح البارع قول إبراهيم بن العباس:

أسـدٌ ضـارٍ إذا هيجتـه ... وأبٌ بـرٌّ إذا مـا قـدرا
يعلـم الأبعـد[1] إن أثـرى ولا ... يعلـمُ الأدنـى إذا مـا افتقـرا

قال: وقد أحسن إبراهيم في قوله:

إمـا تريني أمـام القـوم متبعًـا ... فقـد أرى مـن وراء الخيـل أتبـع
يومًـا أنـيخ فـلا أبقـي عـلى نـشب ... وأسـتبيح فـلا أبقـي ولا أدع
لا تـسألي القـوم عـن حـي صـحبتهم ... مـاذا صـنعت ومـاذا أهلـه صـنعوا

ونقل له قوله:

فكـن كيـف شـئتَ وقـل مـا تـشا ... وأبـرق يمينًـا وأرعـد شـمالا

إلى آخر ما ورد آنفًا.

قال: وهذه الأبيات وإن كانت مشهورة، فإن لإيرادها هاهنا معنى كبيرًا، وذلك أني لست أجد خيرًا منها في معناها وأجود.

وقال المرزباني أيضًا: وأنشدني أبو أحمد، أنشدني أبو مسلم بن بحر لإبراهيم بن العباس، وهي أبيات مشهورة أوردتها لأني لست أجد مثلها في معناها:

ولمـا رأيتـك لا فاسـقًا ... تهـابُ ولا أنـت بالزاهـد
ولـيس عـدوُّك بـالمتقى ... ولـيس صـديقك بالحامـد
أتيـت بـك الـسوق سـوق الرقيـ ... ـق فناديـت هـل فيـك مـن زائـد
عـلى رجـل غـادر بالـصديـ ... ـق كفـور لنعمائـه جاحـد

(١) في رواية: (يعرف) بدل (يعلم) في الموضعين.

فما جاءني رجل واحدٌ ... يزيد على درهم واحد
سوى رجل حار منه الشقا ... وحَلّت به دعوة الوالد
فبعتك منه بلا شاهد ... مخافة أدرك بالشاهد
وأبتُ إلى منزلي سالمًا ... وحلَّ البلاءُ على الناقد

قال: وقد أحسن التصرف فيها فما قاربه في معانيها أحد. قال: ومن ظريف الشكاية قول إبراهيم:

فدعني راغمًا أشقى بوجدي ... وخُذ قلبي إليك بغير حمدِ
سقام لا يرق عليَّ منه ... ووجه لا يكافئه بود
وقد أصفيته ودي بجهدي ... فعارض في الجفاء بمثل جهدي

ومما يجب على الرؤساء أن يحفظوه قوله:

تزيده الأيام إن أقبلت ... حزمًا وعلمًا بتصاريفها
كأنها في وقت إسعافها ... تُسمعه صوت تخاريفها

ومما أحسن فيه وبرَّز على نظرائه قوله:

سقيًا ورعيًا لايام لنا سلفت ... بكيت منها فصرت اليوم أبكيها
كذاك أيامنا لا شك نندبها ... إذا تقضت ونحن اليوم نشكيها

وقال:

قلت لها حين أكثرت علـ ... ـيَّ ويحك أزرت بنا المروءات
قالت فأين الكرام قلت لها ... لا تسألي عنهم فقد ماتوا

وقال:

خلِّ النفاق لأهله ... وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن تُرى ... إلا عدوًّا أو صديقا

وقال:

وعابـــكِ أقـــوام فقـــالوا شـــبيهة ... ببدر الدجى حاشاك أن تشبهي البدرا
لـــئن شـــبهوك البـــدر ليلـــة تمـــه ... لقـد قـارنوا الـشنعاء واقترفـوا الـوزرا
أيـــشبه بـــدرٌ آفـــلٌ نـــصف شـــهره ... ضـياءً منـيرًا يطلـع الـشهر والـدهرا

ومن قوله في الفضل بن سهل وهو كسائر شعره كأنه نثر:

لفـــضل بـــن ســـهل يـــدٌ ... تقـــاصر عنهـــا المثـــل
فبـــسطتها للغنـــى ... وســـطوتها للأجـــل
وباطنهـــا للنـــدى ... وظاهرهـــا للقُبَـــل

وقوله:

تمـر الـصبا صـفحًا بـساكن ذي الغـضا ... ويـصدع قلبـي أن يهـب هبوبهـا
قريبـة عهـد بالحبيـب وإنـما ... هـوى كـل نفـس حيـث حـلَّ حبيبهـا
وزالـت زوال الـشمس عـن مستقرها ... فمـن مخـبري في أي أرض مغيبهـا
تطلـع مـن نفـسي إليهـا نـوازع[1] ... عـوارف أن اليـأس منـك نـصيبها

ومما ينسب إليه:

يُمـــنٌ علـــيكم بـــأموالكم ... وتُعطـــون مـــن مائـــة واحـــدًا

ونقل المرزباني:

ومؤمـــل للنائبـــات إذا ... هـــب الزمـــان بـــأزره هبـــا
لمـــا رآني نهـــب حادثـــة ... جعـــل الـــذخائر دونهـــا نهبـــا

ونقل له ياقوت قوله:

---

(١) في رواية: طوالع.

ولكـــن الجـــواد أبـــا هـــشام ... وفيّ العهـــد مـــأمون المغيـــب
بطـيءُ عنـد[1] مـا استغنيت عنـه ... وطَـلّاع عليـك مـع الخطـوب

فقال: إن هذا من نادر الشعر وجيده. وقال أيضًا: ومن أحسن ما قيل في قصر الليل قول إبراهيم بن العباس:

وليلـــة مـــن الليـــالي الزُّهـــر ... قابلـــت فيهـــا بـــدرها ببـــدر
لم تـــك غـــير شَـــفَق وفجـــر ... حتـــى تولّـــت وهـــي بكـــرُ الـــدهر

ومن شعره والناس يروونه لغيره:

ليلـــة كـــاد يلتقـــي طرفاهـــا ... قـــصرًا وهـــي ليلـــة المـــيلاد

وهكذا تكاد لا ترى للصولي إلا البيتين والثلاثة، ومنها ما يغني عن قصيدة أو قصائد. ذكروا أن عبد الله بن العباس وهب لأخيه إبراهيم بن العباس ثلث ماله، ووهب لأخته الثلث الآخر، فصار مساويًا لهما في المال. فقال إبراهيم:

ولكـــن عبـــد الله لمـــا حـــوى الغنـــى ... وصـــار لـــه مـــن بـــين إخوتـــه مـــال
رأى خَلـــة مـــنهم تُـــسدّ بمالـــه ... فـــساهمهم حتـــى اســـتوت بهـــم الحـــال

وكان لإبراهيم ابن قد يفع وترعرع، وكان مُعجبًا به، فاعتلَّ علة لم تطل حتى مات، فرثاه مراثي كثيرة، وجزع عليه جزعًا شديدًا، فمن مراثيه:

أنـــت الـــسواد لمقلـــة ... تبكـــي عليـــك ونـــاظرُ
مـــن شـــاء بعـــدك فليمـــت ... فعليـــك كنـــت أحـــاذر

(١) في رواية: بطيء العهد ما استغنيت عنه.

قال الحسين بن علي الباقطائي: شاورت أبا الصقر قبل وزارته في أمر لي، فعرفني الصواب. فقلت له: أنت -أيدك الله- كما قال إبراهيم بن العباس في هذا المعنى:

أتيتك شتى الرأي لابس حيرة ... فسددتني حتى رأيت العواقبا
على حين ألقى الرأيُ دُوني حجابه ... فجبت الخطوب واعتسفت المذاهبا

فقال: لا تبرح والله حتى أكتب البيتين، فكتبتهما له بين يديه بخطي.

نثره وطريقته:

خلطنا نثر الصولي بشعره، وكان الغرض أن نقتصر على نثره دون شعره، والإنشاء مرمانا في هذه الورقات، ولكن هكذا جاء؛ وفي شعره كما في نثره ما يُتعلم منه ويُحتذى، وشعره لمن يحاول أن يترجم له أصدق وثيقة تترجم عنه، ثم إن الباقي من شعره كثير، لا يوازيه المأثور من نثره. وللصولي فيما ذكره ابن النديم كتاب ديوان رسائله، وكتاب ديوان شعره، وكتاب الدولة كبير، وكتاب الطبيخ، وكتاب العطر، وكلها في المفقودات.

يقول المسعودي: إن الصولي كان يتكسب في حداثته بشعره، ورحل إلى الملوك والأمراء، ومدحهم طلبًا لجدواهم. وقال: إن له مكاتبات قد دُوِّنت، وفصولًا حسانًا من كلامه قد جمعت. ومما استحسن من فصوله، وكلها في نهاية الجودة: «وقديمًا[1] غذت المعصية أبناءها، فحلبت عليهم من دَرِّها مرضعة، وبسطت لهم من أمانيها مطمعة، وركبت فيهم مخاطرها موضِعة، حتى إذا رتعوا فأمنوا، وركبوا

(١) في رواية عريب في صلة تاريخ الطبري أن أول هذه الرسالة هكذا: وقسم الله عدوه ثلاثة: روحًا معجلة إلى عذاب الله، وجنة منصوبة لأولياء الله، ورأسًا منقولًا إلى دار خلافة الله، استنزلوه من معقل إلى عقال، وبدلوه آجالًا من آمال، وقديمًا... إلخ.

فاطمأنوا، وانقضى رضاع وآن فطام، سقتهم سمًّا ففجرت مجاري ألبانها دمًا، وأعقبتهم من حلو غذائها مُرًّا، وحطت بهم من معقل إلى عقال، ومن حسرة إلى حسرة، قتلًا وأسرًا، وإباحة وقسرًا، وقلَّ من أوضع في الفتنة مرهجًا[1] في لهبها، واقتحم لهبها مؤججًا، إلا استقحمته آخذة بمخنقه، وموهنة بالحق كيده، حتى تجعله لعاجله جرزًا[2]، ولآجله حطبًا، وللحق موعظة، وللباطل حجة، ذلك لهم جزاء في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر، وما ربك بظلام للعبيد».

كان الكاتب عبد الله بن عمرو من بني (عبد كان) المصريين يستصغر كتَّاب سُرَّ من رأى، لما وردها، ولا يرضى أحدهم، فلما أدخلوه على إبراهيم بن العباس، وهو يملي رسالة في قتل إسحاق بن إسماعيل، سمع ما أعجبه فقال: هذا من لم تلد النساء مثله، فإني سمعته يملي شيئًا كأنه فيه نذير مبين.

ومن كلامه: ووجد أعداءُ الله زخرف باطلهم، وتمويه كذبهم، سرابًا بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، وكوميض برق عرض فأسرع، ولمع فأطمع، حتى انحسرت مشرقة مغاربه، وتشعبت مولية مذاهبه، وأيقن راجيه وطالبه، ألَّا ملاذ ولا وَزَر، ولا مورد ولا مصدر، ولا من الحرب محصر، وهناك ظهرت عواقب الحق منجية، وخواتم الباطل مردية، سنة الله فيما أزاله وأداله، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولا لقضائه تحويلًا.

وله في غرض التعزية رسالة منه إلى الخليفة الواثق بالله يعزيه بالمعتصم: إن أحق الناس بالشكر من جاء به عن الله، وأولاهم بالصبر من كان سلفه رسول الله، وأمير المؤمنين أعزه الله، وآباؤه نضرهم الله، أُولو الكتاب الناطق عن الله بالشكر، وعترة

---

(١) أرهج الغبار: أثاره.

(٢) أرض جرز وجرز وأجرز وجرز ومجروزة: لا تنبت أو أكل نباتها أو لم يصبها مطر.

رسوله المخصوصون بالصبر، وفي كتاب الله أعظم الشفاء، وفي رسوله أحسن العزاء، وقد كان من وفاة أمير المؤمنين المعتصم بالله، ومن مشيئة الله في ولاية أمير المؤمنين الواثق بالله، ما عفى أوله على آخره، وتلافت بدأته عاقبته، فحق الله في الأولى الصبر، وفرض في الأخرى الشكر، فإن رأى أمير المؤمنين أن يستجيز ثواب الله بصبره، ويستدعي زيادته بشكره، فعل إن شاء الله وحده.

وله تعزية على لسان الخليفة إلى طاهر بن عبد الله مولى أمير المؤمنين، وقد يجيد الكاتب إذا كتب لنفسه، ولا يجيد إذا كتب بلسان غيره؛ إلا أن إبراهيم في ذلك سواء وغاية، قال:

«أما بعد؛ تولَّى الله توفيقك وحياطتك، وما يرتضيه منك ويرضاه عنك، إن أفضل النعم نعمة تُلقيت بحق الله فيها من الشكر، وأوفر حادثة ثوابًا حادثة أدى حق الله فيها من الرضا والتسليم والصبر، ومثلك من قدم ما يجب لله في نعمة فشكرها، وفي مصيبة فأطاعه فيها، وقد قضى الله سبحانه وتعالى في محمد بن إسحاق مولى أمير المؤمنين -عفا الله عنه- قضاءه السابق والمتوقع، وفي ثواب الله ورضا أمير المؤمنين -أدام الله عزه- وتقديم ما يقدِّم مثله أهل الحجا والفهم، ما اعتاضه معتاض، وقدمه موفق، فليكن الله عز وجل وما أطعته به، وقدمت حقه فيه، أولى بك في الأمور كلها، فإنك إن تتقرب إليه في المكروه بطاعته يحسن ولايتك في توفيقك لشكر نعمه عليك».

ومن توقيعاته توقيع كتبه في كتاب عامل له يعتدُّ بحسن أثر، ويمتُّ بمقام محمود: يا هذا لست أشك أن لك أثرًا في التوفير كان من تقدمك مقصرًا عنه، وأنك معنيٌ محتاط، غير أنك عفيت على ما أحمدتُ منك بما يتناهى إليَّ عنك على السن المتظلمين وأصحاب الأخبار. وذكر لي فلان ما جرى بينك وبين أخيه ما كثر وصفه

له، وقام منه وقعد، وتالله لأكونن الباحث عليك والمطالب لك دونه، لإقدامك على شيخ ابن ستين سنة بما أقدمت به عليه، وأُفٍّ لدنيا اضطرت إليكم فكنتم خيار من يعلم فيها، وأبرأُ إلى الله من أعمالكم التي رجعتم بها إلى أنفسكم ونياتكم.

ومن تحميداته في فتح:

فالحمد لله المزيل لما يمهد المبطلون، ويمكر به الماكرون، ويكيد به الملحدون، تمكينًا لعبده وخليفته، وذبًّا[1] عن دينه وحقه، وإظهارًا لأوليائه وحزبه، وإمضاءً لعزائمه[2] وقدرته، منعمًا قادرًا، ومليًا مهلًا، عدلًا إذا استدرج، متفضلًا إذا أنعم، حمدًا به يُستنزل نصره، ويُبلغ به رضوانه، ويُمترى[3] بمثله فواضل مزيده.

ومن آخر:

والحمد لله بجميع محامده التي حُمد بها على جميع آلائه، وجميل بلائه، فيما ولَّى به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأقرَّ به وليه، وقمع به من ألحد[4] عن سبيله، حمدًا يؤدي حق نعمته، ويوجب به أفضل مزيده، بمنه وطوله.

وله في فتح إسحاق بن إسماعيل:

الحمد لله معز الحق ومديله، وقامع الباطل ومزيله، الطالب فلا يفوته من طلب، والغالب فلا يعجزه من غلب، مؤيد خليفته وعبده، وناصر أوليائه وحزبه، الذين أقام بهم دعوته، وأعلى بهم كلمته، وأظهر بهم دينه، وأدال بهم حقه، وجاهد

---

(١) ذب عنه: دفع ومنع.

(٢) عزائم الله: فرائضه.

(٣) مرى الشيء: استخرجه كامتراه.

(٤) ألحد: مال وعدل.

بهم أعداءه، وأنار بهم سبيله، حمدًا يتقبله ويرضاه، ويوجب أفضل عواقب نصره، وسوابغ نعمائه.

وله تحميد آخر:

أما بعد؛ فالحمد لله الأول بلا أبد يحصى، والآخر بلا أمد يفنى، الظاهر لخلقه بعزته، العزيز سلطانه بعظمته، الفرد بوحدانيته بقدرته، المدبر في ملكه بجبروته، الذي نأى عن الأشياء أن يكون فيها محويًا، واتصل بها فلم يكن من علمًا خليًّا، وهو فيها غير مستكنّ، ومعها غير مماسّ، في لجج البحار، ومفاوز القفار، وشوامخ الجبال، وكثبان الرمل، مع كل خلق، في كل أُفق، وعلى كل شرف ومكان، وفي كل وقت وأوان، موجود إذا طلب، وقريب حيث نُدب، عالم خفيات الغيوب، وخطرات القلوب، وما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبةٍ في ظُلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين.

ومن توقيعاته ما وقّع به لرجل مَتَّ إليه بحرمة:

«تقدمت بحرمة مألوفة، ووسيلة معروفة، أقوم بواجبها وأرعاها من جميع جوانبها». وورد إليه كتاب بعض الكتاب بذم رجل ومدح آخر فوقّع في كتابه: «إذا كان للمحسن من الجزاء ما يقنعه، وللمسيء من النكال ما يقمعه، بذل المحسن الواجب على رغبة، وانقاد المسيء للحق رهبة»، فوثب الناس يقبلون يده.

وكتب شفاعة لرجل إلى بعض إخوانه:

فلان مما يزكو شكره، ويحسن ذكره، ويعنيني أمره، والصنيعة عنده واقعة موقعها، وسالكة طريقها:

وأفضل ما يأتيه ذو الدين والحجا إصابة شكر لم يضع معه أجر

وقال: الكريم أوسع ما تكون مغفرته، إذا ضاقت بالمذنب معذرته.

ومن مشهر كلامه: أتاني فلان في وقت استثقل فيه لحظة الفرح.

وقال: كأن ابن أخي خُلق من ثلاث أشياء: من الثلج والمصل والعذرة، بارد حامض منتن. وكان يقول: مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلًا ثم وقعوا منه، أقربهم من التلف أبعدهم من الارتقاء.

وقيل له: إن فلانًا يحب أن يكن لك وليًّا. فقال: أنا والله أحب أن يكون الناس جميعًا إخواني، ولكني لا آخذ منهم إلا من أُطيق قضاء حقه، وإلا استحالوا أعداء؛ وما مثلهم إلا كمثل النار قليلها مُقْنِع، وكثيرها مُحْرق. وكان يقول: مثل الأصدقاء كالنار، قليلها متاع، وكثيرها بوار. وقال: لو وُزنت كلمات النبي عليه السلام: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم» بكلام أهل الأرض لرجحت.

كتب الصولي على لسان المتوكل إلى عُمّاله في الآفاق كتابه بأخذ أهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير. قال: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإن الله - تبارك وتعالى- بعزته التي لا تُحاولُ، وقدرته على ما يريد، اصطفى الإسلام فرَضِيَه لنفسه، وأكرم به ملائكته، وبعث به رسله، وأيد به أولياءه، وكنفه بالبر، وحاطه بالنصر، وحرسه من العاهة، وأظهره على الأديان، مبرًّا من الشبهات، معصومًا من الآفات، محبوًّا بمناقب الخير، مخصوصًا من الشرائع بأطهرها وأفضلها، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها، ومن الأعمال بأحسنها

وأقصدها، وأكرم أهله بما أحلَّ لهم من حلاله، وحرَّم عليهم من حرامه، وبيَّن لهم من شرائعه وأحكامه، وحدَّ لهم من حدوده ومناهجه، وأعدَّ لهم من سعة جزائه وثوابه فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه، وفيما حضَّ عليه فيه ووعظ: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون}. وقال فيما حرم على أهله مما عمط[1] فيه من رديء المطعم والمشرب والمنكح لينزعهم عنه، وليطهر به دينهم، ليفضلهم عليهم تفضيلًا: {حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة} إلى آخر الآية. ثم ختم ما حرَّم عليهم من ذلك في هذه الآية بحراسة دينه ممن عنَدَ عنه، وبإتمام نعمته على أهله الذين اصطفاهم، فقال عز وجل: {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني * اليوم أكملت لكم دينكم} الآية، وقال عز وجل: {حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم} الآية، وقال: {إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان} الآية، فحرَّم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرجسها وأنجسها، ومن شرابهم أدعاه إلى العداوة والبغضاء، وأصدَّه عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن مناكحهم أعظمها عنده وزرًا، وأولاها عند ذوي الحجا والألباب تحريمًا، ثم حباهم محاسن الأخلاق وفضائل الكرامات، فجعلهم أهل الإيمان والأمانة، والفضل والتراحم، واليقين والصدق، ولم يجعل في دينهم التقاطع والتدابر، ولا الحمية ولا التكبر، ولا الخيانة ولا الغدر، ولا التباغي ولا التظالم، بل أمر بالأُولى ونهى وعن الأخرى، ووعد وأوعد عليها جنته وناره، وثوابه وعقابه. فالمسلمون بما اختصهم الله من كرامته، وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم، بائنون على الأديان بشرائعهم الزاكية، وأحكامهم المرضية الطاهرة، وبرهاناتهم المنيرة، وبتطهير الله دينهم، بما أحلَّ وحرَّم فيه، لهم وعليهم، قضاء من الله عز وجل

(١) عمط عرضه: عابه وثلبه كاعتمطه.

في إعزاز دينه حتمًا، ومشيئة منه في إظهار حقه ماضية، وإرادة منه في إتمام نعمته على أهله نافذة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين، والخزي في الدنيا والآخرة على الكافرين.

وقد رأى أمير المؤمنين -وبالله توفيقه وإرشاده- أن يحمل أهل الذمة جميعًا بحضرته، وفي نواحي أعماله، أقربها وأبعدها، وأخصهم وأخسهم، على تصيير طيالستهم التي يلبسونها من لبسها من تجارهم وكتابهم، وكبيرهم وصغيرهم، على ألوان الثياب العسلية، لا يتجاوز ذلك منهم متجاوز إلى غيره، ومن قصر عن هذه الطبقة من أتباعهم وأرذالهم، ومن يقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم، أُخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ، يكون استدارة كل واحدة منهما شبرًا تامًّا في مثله، على موضع أمام ثوبه الذي يلبسه، تلقاءَ صدره ومن وراء ظهره، وأن يؤخذ الجميع منهم في قلانسهم بتركيب أزرة عليها يخالف ألوانها ألوان القلانس، ترتفع من أماكنهم التي تقع بها لئلا تلصق فتُستر، ولا يركب منها على حباك[1] فيخفَى، وكذلك في سروجهم، باتخاذ ركب الخشب لها ونصب أُكر على قرابيسها [2] تكون ناتئة عنها وموفيّة عليها، لا يرخص لهم في إزالتها عن قرابيسهم وتأخيرها إلى جوانبها، بل تتفقد ذلك منهم، ليقع ما وقع من الذي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه ظاهرًا يبينه الناظر من غير تأمل، وتأخذه العين من غير طلب، وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم، ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة، بشد الزنانير والكساتيج[3] مكان المناطق التي كانت في أوساطهم، وأن توعز إلى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين في ذلك، إيعازًا تحدوهم به إلى استقصاء ما تقدم إليهم فيه، وتحذرهم إدهانًا وميلًا،

(١) القدة التي تضم الرأس إلى خشبة القتب.

(٢) القربوس كحلزون: حنو السرج.

(٣) الكستيج بالضم: خيط غليظ يشده الذي فوق ثيابه دون الزنار.

وتتقدم إليهم في إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عناد وتهوين إلى غيره، ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم على السبيل التي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها، وأخذهم بها إن شاء الله.

فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين وأمره، وأنفذ إلى عُمّالك في نواحي عملك ما ورد عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمل به إن شاء الله. وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه، أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وملائكته، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه، ويتولى ما ولاه مما لا يبلغ حقه فيه إلا بعونه، حفظًا يحمل به ما حمله، وولايةً يقضي بها حقه منه، ويوجب بها له أكمل ثوابه وأفضل مزيده، إنه كريم رحيم.

«وكتب إبراهيم بن العباس في شوال سنة خمس وثلاثين ومائتين».

هذا ما أمكن التقاطه من كلام الصولي، وعدّه صاحب العقد في جملة من نبُل بالكتابة وكان قبل خاملًا فاستحق اسمها، وعدّه ابن النديم في البلغاء الحُدُث. وفي كتاب الأوراق: اجتمع الكُتّاب عند أحمد بن إسرائيل فذكروا الماضين من الكُتّاب، فأجمعوا أن أكتب من كان في دولة بني العباس أحمد بن يوسف وإبراهيم بن العباس، وأن أشعر كتاب دولتهم إبراهيم بن العباس ومحمد بن عبد الملك الزيات؛ فإبراهيم أجودهما شعرًا، ومحمد أكثرهما شعرا؛ ثم الحسن بن وهب وأحمد بن يوسف، وأن أذكى كتّاب الدولة وأجمعهم لمحاسن الكتابة من ذكاء وخط وفطنة: جعفر بن يحيى وإسماعيل بن صبيح. وقال صاحب الأغاني: كان محمد بن عبد الملك الزيات شاعرًا مجيدًا لا يقاس به أحد من الكتاب، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك؛ وكان إبراهيم مقلًّا، وصاحب قصار ومقطعات؛ وكان محمد شاعرًا يطيل فيجيد، ويأتي بالقصار فيجيد، وكان بليغًا حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب. وقال آخر: كلام

إبراهيم بن العباس نمط واحد قد أسدته القريحة، وألحمته الغزارة، فاتصل أوله بآخره، ووارده بصادره.

ولعل حب التأنق الذي غلب عليه منذ نشأته الأولى، دعاه إلى أن لا يخرج من كلامه إلا المجوَّد المنقح، وأن يعمد إلى الإيجاز في منظومه ومنثوره، لا يكتب إلا ما رأى بعينه، وتخيله بحسه ونفسه، (وكان إذا قال شعرًا اختاره وأسقط رذله وأثبت نخبته)، وإذا كتب أوجز وألبس المعنى قالبًا شفافًا من نسجه، ليس بالفضفاض المسترسل، ولا بالضيق المخنوق. ذكره أبو زيد البلخي فقال: «كان من أبلغ الناس في الكتابة، حتى صار كلامه مثلًا». والمثل لا يدور على الألسن إلا لاختصاره، والشعر لا تتناقله الألسن إلا لسهولة حفظه، ولما فيه من إيقاع ووزن وتساوق. ولا يزال المتصفح لكلامه يقع له على المعنى الكثير في الجملة القصيرة، فكان حقًّا كما قالوا: «كاتبًا من أشعر الكتاب وأرقهم لسانًا، وأسيرهم مثلًا» وهو «أشعر نظرائه الكتاب... وأشعاره قصار، ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة، وهو أنعت الناس للزمان وأهله غير مدافع»، وهذا من أعظم ما امتاز به؛ لأنه عرف أخلاق الناس في نكبته.

وأبان إبراهيم عن طريقته وسبب نجاحه في تنضيد دُرره فقال: ما اتكلت في مكاتبتي قط إلا على ما يجلبه خاطري، ويجيش به صدري، إلا قولي: وصار ما يُحْرزهم يُبرزهم، وما كان يعقلهم يعتقلهم. وقولي في رسالة أخرى: فاستنزلوه من معقل إلى عِقال، وبدلوه آجالًا من آمال. فإني ألممت بقولي آجالًا من آمال بقول مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني وهو:

موفٍ على مُهَج في يوم ذي رهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل

وفي العقل والعقال بقول أبي تمام:

فإن باشر الإصحار فالبيض والقنا قِراه وأحواض المنايا مناهله
وإن يَبْنِ حيطانًا عليه فإنما أولئك عُقّالاته لا معاقله
وإلا فأعلمه بأنك ساخط عليه فإن الخوف لا شك قاتله

ذُكر شعر الكُتّاب بحضرة إبراهيم بن العباس فقال: أشعرهم عندي الذي مزحه أفصح وأحسن من جد الناس. وكان يقول: ما تمنيت كلام أحد أن يكون لي إلا قول عبد الحميد بن يحيى: الناس أصناف متباينون، وأطوار متفاوتون، منهم عِلق مضنة لا يباع، ومنهم غِلٌّ مظنة لا يُبتاع.

ولعل أعظم سبب في توفيقه وتفوقه زهده في الغريب من اللفظ، وتشبثه بأهداب المعنى أكثر من كل شيء، واعتداده بعفو القريحة ووحي الساعة. قال أبو الغيث: كنت عند إبراهيم بن العباس وهو يكتب كتابًا، فنقطت من القلم نقطة مفسدة، فمسحها بكمه، فعجبت، فقال: لا تعجب، المال فرع والقلم أصل. ومن هذا السواد جاءت هذه الثياب، والأصل أحوج إلى المراعاة من الفرع، ثم فكر قليلًا وقال:

إذا ما الفكر وَلّدَ حسن لفظ وأسلمه الوجود إلى العيان[1]
ووشّاه ونمنمه بيانٌ فصيح في المقال بلا لسان
ترى حلل البيان مُنشرات تضاحك بينها صور المعاني

وكان يقول: المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من منشئه. وقال: الكتب موات، ما لم يوقّع فيها توقيع الختم وتختم، فإذا فُعل ذلك بها عاشت. وقال لغلام

(١) روى الصولي في أدب الكتاب هذا البيت هكذا:
إذا ما الفكر أظهر حسن لفظ وأداه الضمير إلى العيان

كان يكتب بين يديه: «ليكن قلمك صلبًا بين الدقة والغلظ، ولا تبره عند عُقَده، ولا تجعلن في أنبوبه أنبوبة، ولا تكتبن بقلم ملتوٍ، ولا بذي شق غير مستوٍ، واختر من الأقلام ما يضرب إلى السمرة، وأحدَّ سكينك ولا تستعملها لغير قلمك، وتعهده بالإصلاح يصلح، وليكن مقطعك صلبًا ليمضي الخط مستويًا لا مستطيلًا، وابرِ قلمك بين التحريف والاستواء، وإذا كتبت الدقيق فأَمِلْ قلمك إلى إقامة الحروف لإشباع الخط، وإذا جللت فإلى التحريف، واعلم أن تبطين القلم شُؤم، وتحريفه حرن، وهما دمار الخط، واعلم أن وزن الخط مثل وزن القراءة، فأجود الخط أبينه، كما أن أحمد القراءة أبينها».

وبعد، فإن إبراهيم بن العباس أحد أركان البيان في عصره، كان كما قال فيه أبو الشبل لما رآه يكتب:

يـــنظّم اللؤلـــؤ المنثـــور منطقـــه ويـــنظم الـــدر بـــالأقلام في الكُتـــب

توفي إبراهيم بن العباس الصولي في سنة (٢٤٣هـ).